

الشيخ محمد عبده

اشتغاله في مجلس الشورى

وقال سعادة حسن باشا عبد الرزاق واصفاً اشتغال الفقيد في مجلس الشورى ما كان فقيدنا رحمه الله عليه من الرجال الذين ينبغون في كل جيل أو ينشأون من كل قبيل ولكن من النوائج الذين يأتي بهم الدهر آحاداً وتنجي بهم العصور في احقاب يتفرقة فينشأون وقد عدّم الله لجلال الاعمال وعظام الامور ومخيم فطرة تعلق على سائر القطر وميزم بسداد الرأي ورجاحة العقل وبعد المرمى ومعة الصدر وقوة القلب فاذا نبت امثال هؤلاء في ارض صالحة ووجدوا في امم مستعدة للرقى طامحة الى ادراك المعالي غرفت اقدارهم ووزنت اعمالهم واهتدت بهديهم فساروا بها في سبيل السعادة ورفعوا مقامها على هام الدماك لاسيما اذا طلال بهم الاجل واتسعت لهم مدة العمر وكان نصيب بلادهم واهلها منهم خير نصيب . هؤلاء الرجال العاملون خير ائمتهم يجيدون من قومهم في البلاد الحية ما يزيدهم اقداً وثباتاً ويملا صدورهم ثقة ورجاء فيعيشون ما يعيشون مؤيدة كلمتهم تكومة رتبتهن محفوظاً لهم الجميل وبذلك يشتد ساعدهم وتتم ملكة الاصلاح فيهم وكما زادم قومهم قبولاً واقبالاً زادوا رغبة في العمل ولا تجد انشط للعامل من ان يرى لعمله عند امته قبولاً

اما اذا قضى الله لأولئك التابعين ان يكونوا بين امم فسدت اخلاقها وتمزقت روابطها وبعد ما بينها وبين الحياة القومية وتمكنت منها الغفلة وساد فيها الجهل فانهم يجيدون من قومهم حرباً عواناً كما ارادوا بهم اصلاحاً لانهم يريدون ان يزحزحوا الناس عن ملكات فاسدة رسخت في نفوسهم واطمأنت لها قلوبهم ويعملون لتحويل وجوههم الى الرشاد بعد ان انصرفت الى الغي وأنست به وما اصعب ثقل الطباع في الامم من التصاد الى الصلاح وما اشد مدافعة الجاهلين عن اهوائهم وشهواتهم ولكن قد يوجد في تلك الامم الميتة بعض افراد يوقفهم الله لتمييز الصواب من الخطاء ومعرفة النافع من الضار فيقبلون على اولئك المصلحين بوجوههم ويصفون لندائهم فان يد الله لم في حبل الحياة اثر غراسهم وتركوا من مختلفهم في اعمالهم اما اذا اسرع اليهم الحام كان نجاح عملهم بطيئاً

ولا يخفى عليكم ايها السادة حال امتنا المصرية وما لاقى الاستاذ الفقيد رحمه الله منها ابتداء من مناصبتها له ووضعها العقبان في سبيله

(وافاض الخطيب في وصف هذه العقبات وتغلب العقيد عليها وساق الحديث الى آثاره في مجلس الشورى فقال)

ولكني ارى من الواجب علي ايها السادة ان اذكر لكم بجملاً من مآثره الغراء واعماله الجليلة في مجلس شورى القرآنيين لاني راقتة فيه في اغلب اوقاته وشاركته في معظم اعماله وعرفت من حسن نيته وصدق عزيمته ما لا يعرفه كثير من الناس

اخارت الحكومة الاستاذ رحمة الله عليه عضواً في المجلس وتعين بامر عال في ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩ واول جلسة حضرها كانت في يوم الخميس ٢٩ منه وكان اذ ذلك بين اهل الحل والعقد في الحكومة وبين رجال الشورى شيء اشتهر بالخلاف في الرأي ادعى الى ان الحكومة نفذت كثيراً من المشروعات التي كان المجلس يرى الخير للامة في عدم العمل بها وصرفت النظر ايضاً عن كل او جل التعديل في المشروعات التي كان يرى ان الصلاح والنفع للامة في تعديلها فلما جاء الاستاذ الى المجلس ونظر في الامر نظرة الحكيم البصير وعرف ان ليس هناك ما يدعو الى هذا الاقتراح وانما هو سوء التفاهم باعد ما بين المتأرب على تقاربها سعى رحمة الله في ان يزيل اسباب هذا الخلاف فكان ما اراد وعرفت الحكومة ان المجلس انما يطلب ما فيه السعادة للامة وبتبني الخير لها وان ليس له غرض في مصادمة آراء الحكومة ومطالبها ما دامت تتفق مع مقصود وعلم المجلس ايضاً ان الحكومة لا تقصد الى شيء وراء ما يقصده للصلحة البلاد وبذلك اتفقت الكلمة في الغالب ولم يعد بين الهيئة الحاكمة والهيئة النيابية من الخلاف ما يتصرح به

كان الاستاذ رحمة الله عليه واسطة العقد في مجلس الشورى فالتفت حوله القلوب وعرف الكل مكانته من قوة الحجج وسداد الرأي وطهارة النية وكان اخوانه من رجال الشورى يلجأون اليه اذا اشتبه الامر وخفي الصواب فينطق بالحكمة وفصل الخطاب وكان مع هذا اسرع الناس قبولاً الى الحق واوسعهم له صدرًا فاذا سنت اليه الحق هشت له نفسه وقرت به عينه ولم يصرفه عنه تمسك بالرأي ولا تعصب لشرب

وكثيراً ما كنا نباحثه في امر اختلف النظر فيه بيننا وبينه فيرجع الينا ويوافق رأيه رأينا ولم نر مثله في احترام الآراء ما دام مصدرها شريعياً لم يشبه الغرض ولقد كنا نختلف معه في رأي ويجهز كل منا برأيه ويدعو اليه اعتقاداً منه انه الحق ولا تزال بعد ذلك اخلص الناس مرراً واصفام ودماً

وكان رحمه الله واسع الاطلاع نير البصيرة في كل ضرب من ضروب الاصلاح فاذا عرضت المشروعات القانونية كان بها خبيراً بصيراً واذا قدمت للنواحي لادارية لم يكن اقل من اهلها علماً بدقائقها واسرارها واحاطةً بمنافعها ومضارها واذا جاءت المسائل المالية رأته ماهراً بأساليب الحساب عارفاً بننون الاقتصاد فكنا نجد منه في سائر الابواب علماً جماً ومعرفةً وفهماً ورأياً صائباً وذهناً ثاقباً ولم يزل هكذا يعمل وهكذا يجاهد حتى عجزت قواه عن العمل وحال يئنه وبين مراده الاجل . قضى هذا التقيد الكريم مدته بيننا وهو كالتقطر حيثما وقع نفع وانا لعلم ان البلاد تكثرت بموته رجلاً لا تعوزه الرجال وانتم بتقدمه بناء الاسلام ثلثة جانبا ليس بملود

اخلاقه وفضائله

وقال حضرة القاضي الفاضل قاسم بك امين المستشار في محكمة الاستئناف اذا أصيبت امة من الامم الغربية بفقد رجل من رجال العلم او الادب او السياسة كانت تقعد عليه في اصلاح شأن من شؤونها قال قومه " ليس في الوجود انسان لا يموص " ووجدوا في الحال بين اهل طائفتهم او صناعتهم من يسد الفراغ الذي تركه وياخذ مكانه اما الحال عندنا فليس كذلك . مها قلبنا النظر ودققنا في البحث والتفتيش فلا نجد في امتنا من يموص علينا ما خسرناه بفقد استاذنا الشيخ محمد عبده لا اقول ذلك بحباية لصديق كانت محبته من اسباب الشرف والسعادة لي ولا موافقة للعادة المتبعة في رثاء المتوفين حيث يحسن غض النظر عن عيوبهم ومخيم صفات وفضائل لم يعترف لم احد بشيء منها مدة وجودهم بين الاحياء

وانما هذا هو الحق الذي يجب اعلانه اعترافاً بالفضل لمصري وصل الى اسمي مقام يمكن ان يناله انسان في هذه الحياة . مقام لم يستمد وجوده من نصب عال في الحكومة ولا من رتبة رفيعة ولا من ثروة طائلة ولا من نسبة الى بيت قديم ولا من شيء اخر من القاب الشرف المعروفة التي اخترعت لتجل محل شرف النفس . مقام اهتدى اليه بشعوره واكتسبه بجده وعمله وحافظ عليه بقوة ارادته وحسن سياسته وخدم فيه ببطء وعقل . مقام يمكنه من ان يمك يدور زمام امة بأسرها ويحركها نحو اخطه التي رسمها ويسرقها الى المستقبل الذي هياها لها . مقام الامامة باوسع معناها . تركه الشيخ محمد عبده ولا يوجد في مصر واحد يجرا على ان يدعي فيه استحقاقاً بعده

لهذا رأينا مدة مرض الامام ويوم وفاته حركة في شعور الامة لم يسبق لها مثيل في تاريخ حياتها

تذكرون يوم السفر الى الاسكندرية حيث كان المئات من اصدقائه ومعارفه وزملائه وتلاميذه يودعون في المحطة وجميعهم في سكون وقلق وخوف على حياته . وتذكرون اقامته في الرمل والزيتون من جميع طبقات الامة ومن جميع جهات القطر يتوافدون عليه اوفاجاً في كل ساعة من النهار وهم يترددون بين الامل والياس يسألون عن صحته ويرسون اخباره الى محبيه الكثيرين الذين كانت تمنهم اشغالهم عن زيارته وتعلمون الاحتفال الجليل الذي قام به سكان الثغر والعاصمة بعد موته

رأينا كثيراً من العلماء والذوات والامراء مرضوا وماتوا فكانوا موضوعاً للظواهر الرسمية ولم نشاهد ان عدداً يذكر من الامة غير اقاربهم واصحابهم اهم لحادث من تلك الحوادث واظهر شيئاً من شعوره

ذلك لان اولئك العلماء والذوات والامراء انما عاشوا لانفسهم ولكن امتنا قد شعرت في هذه الدفعة بحسن غريزتها انها فقدت رجلاً كان عائشاً لها اكثر من كونه كان عائشاً لنفسه ولعائلته . هذا هو سر الشعور الجديد الذي رأيناه لأول مرة في الامة المصرية شعور الاتحاد في الكدر والحزن لحرمانهم من امامهم المحبوب

فكان هذا الحادث العظيم مبدأ الاتحاد والنضام بين عدد كبير من الامة المصرية جمعهم احساس واحد . وهذه خطوة في سبيل التقدم الادبي الذي هو في نهاية الامر عبارة عن ترقى الاحساس الى درجة ييل معها الى الجليل وينفر من القبيح في جميع اشكالها ومظاهرها سادتي ان كل نفس بشرية لها نصيب من الجمال والقبح . والكمال المطلق لا يوجد في هذا العالم ولكن بعض النفوس الممتازة تقرب من الكمال اكثر من غيرها فتتقو زهرة الجمال فيها نمواً عجيبياً وتكثر فروعها وتمتد ضوياً وعرضاً ولا تترك محلاً لسواها فيضعف ويذبل كل نبات خبيث بجانبها

ومن هذا القسم الممتاز كانت نفس امامنا العزيز . نفس خلقت على احسن شكل زينها صاحبها بالفنائل حتى صارت مثالا في الجمال يجب ان نضعه دائماً امامنا لتعلم منه مقدار ما يصل الجهد في العمل عند رجل اقترب من سن الستين وكان يطالع ويتعلم ويعلم وينقي ويجلس في جلسات مجلس شورى القوانين . مجلس الاوقاف الاعلى ويترأس على الجمعية الخيرية الاسلامية ويضع المشروعات للازهر وللحاكم الشرعية ويمتحن طلبة العلم وتلاميذ

المدارس ويؤلف الرسائل الدينية وينشر المقالات الفلسفية ويدافع عن الدين اذا ظعن صدر عليه ويراسل علماء المسلمين في جميع الاقطار التي يسكنونها ويخاطبهم مع رجال الحكومة لتنفيذ مقاصده . وكان مع كل ذلك يجهد وقتاً لبزور اصحابه ويشاركهم في جميع افراسهم واحزانهم

وتعلم منها ايضاً مبلغ ارتقاء الخلق في انسان اجهد نفسه وهذبه ورباها حتى ارسلها الى اقصى ما تصل اليه نفس بشرية من الجمال او الكمال

بلغت فيه طيبة النفس الى درجة تكاد تكون غير محدودة . كان يجذب الخبير كما يجذب المغناطيس الحديد فيندفع اليه ويسعى الى كل نفع للغير عام او خاص . كان ملجأ الفقراء واليتامى والمظلومين والمرفوتين والمصابين باي مصيبة واهل الازهر الذين هم اكثر الناس احتياجاً الى المساعدة لانهم في وسط المدينة الحاضرة المتأخرون العاجزون عن الدفاع عن انفسهم في ميدان حياتنا الجديدة . يبذل اليهم ماله ويسعى لهم عند ولادة الامور بهيمة لا تعرف المثل كما نأمن كان يسعى لاعتز انسان لديه يسى مرة ومرتين وثلاثاً الى ان يقضي حاجتهم وهم جميعهم في نظره مستحقون سواء كانوا كذلك في الحقيقة ام لا . بل كان يسعى الى صاحب الحاجة وهو يعلم انه اساء اليه وقدح فيه وتحالف مع خصومه واشترك في ترويج عبارات القذف والنميمة التي لم تنقطع عنه يوماً مدة حياته

لا يصل انسان الى هذا الخلق العظيم الا اذا ربي نفسه على ان تغلب على الفرائز التبيحة الملازمة للطبيعة البشرية وصار حاكماً عليها يحاسبها على كل عمل او نزعة او فكرة او خاطر بما يرد عليها . كان الاستاذ يرى ان الشر لا فائدة منه مطلقاً وان التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما احسن ما يعالج به السوء ويفيد في اصلاح فاعله . كان متفقاً مع فلاسفة العصر على ان الخير لا يتولد الا من الخير والشر لا ينتج الا من الشر

نعم كان للامام الكبير الذي فرض على نفسه اصلاح امتيه خصوم واعداً كثيرين وهم جيش الجهل المركب من عامة الناس الذين لم ينالوا من التربية والعقل ما يؤهلهم لان يدركوا مقاصده ويفهموا مباحثه يقتصر على التمسك بما وجد عليه آباؤهم من قبل وعلى جوانب هذا الجيش يجرس على الظن عليه الحامدون الذين يتألمون اذا ارتفع واحد من الناس عنهم فلا يجردون راحتهم الا اذا انزلوه من مكانه ووضعوه في مستوى واحد معهم — وفي مقدمة هذا الجيش كقواد له ارباب الغايات الذين يسرون بسفينة مصالحهم من حيث تأتي الرياح . فكان الاستاذ يقاوم ويحارب هذا الجيش الطويل العريض بقوة وعزيمة يحار

العقل فيهما ونكته كان بدافع بقدر الضرورة ولا يتعداها ويحارب حرب الشجاع الكرم
الذي لا يظعن من الخلف ولا يندع ولا يفتش . وكان فضلاً عن ذلك لا يكره خصومه
ولا يبغي اعداءه وإنما يناقش انكارهم ويظعن عن اوهامهم ويهدم معتقداتهم الباطلة
ويرجو لهم الهداية ويرشدهم الى الصواب

كان الكثير من اصحابه يحزنونه ان يجنب اسباب المناه ويترك ادارة الازهر والدروس
التي كان يتقيا فيه ويجلس الاوقاف ومجلس الشورى والافتاء ويعود الى مركزه في الاستئناف
براتب اعظم مما كان يكسبه وعمل اخف مما كان يكابدُه فيعيش كثيره خالياً مستريحاً
معتشاً . ولكنه لم يسمع قول نصح . واقول انه كما عرفت كان من السخيل عليه ان يعيش
عيشة اخرى

وكان الكثير من الناس يعارضون عليه قائلين: ما هذا الشيخ الذي يتكلم باللغة الفرنسية
ويسبح في بلاد الافرنج ويترجم مؤلفاتهم وينقل عن فلاسفتهم ويباحث علماءهم ويفتي بما لم
يقبل به احد من المتقدمين ويشارك في الجمعيات الخيرية ويجمع المال للفقراء والمكروبين
ان كان من اهل الدين فليقتض حياته بين الجامع والبيت وان كان من رجال الدنيا فانا نراه
يعمل فيها وحده اكثر من جميع الناس . كان الاساذ يسمع ذلك ولا يلتفت الى اقوال
المتقدمين حسنت نيتهم اوساءت

كان محرراً بقوة غير عادية ملأنا بالفكر الى حد انه ما كان يسمع كلمة فكان
يفيض منه بالرغم عنه . وكان قلبه ملتهباً بحب وطنه فلا يستريح الا وهو مشغول به وبسعادته
ومستقبله وكان مثل جميع النوانح لا يبالي بالالم الذي ياتيه بسبب ائبته التي كان يعمرها بل
كان يجد الالم فيها لذيذاً كما يلتذ العاشق بما يقاسيه من العذاب في هوى من يجه
كم من مرة سمعته يؤكد بانهُ صمم على ان لا يتداخل في شيء من هذا القليل ثم رأته
في الهند منمماً فيه اكثر مما كان بالامس

ذلك لانه كان يعكس ما يراه عموم المصريين في نفسهم عنده امل لا يزعزعه شيء
في اصلاح امته . واعتقاد متين ان البذرة الطيبة متى القبت في ارض بلادنا الخصبه نبتت
وازهرت واثمرت كما نبتت وازهرت واثمرت بذور الفساد فيها

لهذا كان يلقي بملء يديه كل ما جمعه في حياته من الافكار الصالحة والعواطف الشريفة
والتعاليم القيده - كما انه كان يشعر ان حياته ليست طويلاً وكان لعجل يبذل جميع ما كان عنده
وهل كان مخطئاً في آماله؟ كلا . وانما يخطئ من يقنط ويأس من مستقبل امته

ان لم نسمح القدرة لامام مصر بانقام مقاصده جميعها فلا ينكر احد ان تعاليمه قد أثرت في عموم الامة وفي أهل الازهر على الخصوص تأثيراً حسناً ولكن ينبغي ان لا يغيب عن فكرنا ان الامم التي تستفيد من الاصلاح هي التي نستخذه اي تدرکه وتحمه وتحميه وتطالب به وتكرم رجاله وتجتزهم وتغزهم والأفكل اصلاح فيها مصيره الى الزوال السريع

يجب علينا ان نضع يدنا على بناء الاصلاح الذي وضع الامام اساسه ونحافظ عليه وندافع عنه ونضيف اليه ان امكنا حتى نتركه الى ذريتنا كبريات نفيس تنتفع منه وتزيد عليه ثم نتركه الى من يأتي بعدها وهكذا بنمو الاصلاح فينا كما مرت الايام والاجيال كما هو الحال عند الامم الحية . سادتي نحن اليوم في عصر توفرت فيه ظروف عديدة تساعد على ارتفاع بلادنا اذا نحن عرفنا ان نستخدمها . نحن في عصر النظام والحرية التامة التي لا تقف الا عند حد القانون وارى المفسدين منا تجارتهم رابحة يتكلمون بصوت عالٍ وينشرون ما يوافق مصالحهم ويختلسون ثقة الجمهور ورضاء ولاة الامور . اراهم بالاجمال ينتفعون من الحرية التي منحها المصريون وارى بعكس ذلك ان الطيبين منا الصادقين الذين يريدون الخير لبلادهم لا يستعملون حريتهم ولا ينتفعون منها بشيء يتكلمون بصوت منخفض او لا يتكلمون ولا ينشرون اميالهم وآراءهم ويعتمدون عن ولاة امورهم ويترفعون عن المناقشة والجدال ولا يملون الى الجهاد في سبيل الحق والعدل والمنفعة العامة فكان ضعف هولاء وجراءة اولئك من اهم العوائق التي صادفها الامام في طريق الاصلاح

اذا دام هذا الحال كان نصيب ما شيده من البناء الخراب والسقوط اما اذا عدل مجبر الاصلاح منا عن خطتهم وجاهرها بافكارهم ودافعوا عن آرائهم وتركوا ما اعتادوه من الافراط في الحرص على راحتهم والمسائلة الزائدة عن حد المعقول وساروا في الطريق الذي رسمه لهم امامهم ملهمين بروحه مبتدئين بنوره مقتدين بسيرته معجيين بما اظهره في حياته من علو النفس وشهامة الخلق وشجاعة الرأي وثبات العزيمة فلا ريب ان البناء بكل والاصلاح يتم ويحقق ما كان استاذنا وامامنا العزيز يريد وما يتناه كل مصري من الشرف والمجد والسعادة لامتة